الفكر الخلدوني : قراءة سوسيو – تاريخية

أ – عبد الرزاق أمقران
أ – عيسات العمري
قسم علم الاجتماع – جامعة سطيف

تمهيد :

نشأ ابن خلدون وعمل في عصر مليء بالتناقضات في الفترة الواقعة بين القرنين الحادي والرابع عشر الميلاديين، فكانت آراء العلامة تجسيدا للتغيرات العميقة التي طرأت على النواحي الاقتصادية والسياسية في بلدان المغرب العربي، أين كان النظام الإقطاعي هو النظام الاقتصادي والاجتماعي السائد في هذه البلدان، ويمتاز بفقدان مركزية الدولة ومعمقا من المتناقضات الاجتماعية وخاصة في الريف، إلا أن ارتباط المغرب العربي بسوق البحر الأبيض المتوسط، ساهم في تعاظم دور المدن الساحلية، والذي بدوره قلل من استغلال الفلاحين وأدى إلى تغيير في تقسيم السكان الطبقي، وكانت نتيجة ذلك بروز طبقة من النبلاء في المدن سعت إلى المشاركة في إدارة شؤون البلدان السياسية، وواجهت بذلك التجزئة الإقطاعية لهذه البلدان .

وقد مثل ابن خلدون مزاج الفئة المثقفة التي رأت آنذاك في الإقطاعية خطرا محدقا بالمجتمعات، فسعت إلى تلطيف تناقضات هذا النظام من خلال طرح برنامج سياسي كبير يأخذ بالحسبان مصالح فئات المجتمع الأخرى، وهذا ما جعل الكثير من المفكرين المعاصرين يصفون آراء ابن خلدون بالتقدمية والطليعية، إضافة إلى تركيزهم واعترافهم بالأصالة العلمية في مساهمته الفكرية .

إن غزارة وكثافة ما ساهم به العلامة يجعلنا في هذه الورقة، نقتصر على الوقوف على أهم المعالم في عمله، والتي في اعتقادنا لها طبيعة تاريخية واجتماعية والتي لا يزال تأثيرها واضح في الفكر الاجتماعي العالمي عموما والفكر العربي خاصة.

وتأتي هذه المداخلة المتواضعة لتتعرض في الجزء الأول منها للأبعاد التاريخية لإسهامات ابن خلدون، وتهتم بالقراءة السوسيولوجية لأهم إسهاماته الاجتماعية في الجزء الثاني، لنخلص أخيرا لتقييم أهم إنجازاته العلمية .

أولا ـ تحليل أبعاد الفكر الخلدوني التاريخية :

إن المتفحص لحياة ابن خلدون الاجتماعية وظروف نشأته، وعوامل نبوغه ودعائم صقل مواهبه، يدرك أن الرجل عاش وعايش ظروف عصره فأبدع وأنتج فكرا إنسانيا لا يزال منهجا بل دستورا لعصور نعاصرها الآن ؛ بل وسيبقى هذا الفكر رمز إشعاع لا حدود جغرافية تحده، ولا إيديولوجية فكرية تحتويه، إنه فكر إنساني عالمي – لا عولمي – ومهما حاولنا أن نسلط الضوء على إسهاماته فإننا نعتقد – جازمين – أننا سوف لن نفيه قدر حقه .

1 ـ قراءة في أبعاد شخصيته الإنسانية والعلمية :

إن أهم ما يميز هذه الشخصية الفذة هو تحكيمها للنظر والبصيرة في دارسة واقعات العمران البشري، وقد غذى هذه الرؤية سعة إطلاعه وتشبعه بالقيم الدينية الإسلامية من جهة وبإطلاع واسع على ما كتب الأقدمون، وبرؤية ثاقبة للواقع دونما نصب ولا ككل واجتناب لمواطن الغلط والزلل من جهة أخرى .

ولعل ما يستدعي منا الوقوف عنده هو ما خبره من متاعب متوالية ونكبات متتالية لاسيما ما أصاب عائلته والكثير من أهمله ومشايخه، حينما انتشر مرض الطاعون بتونس[1] أين فقد والديه وثلة من من نهل على أيديهم منابع العلم وروافد الفقه المختلفة ألوانه ... وما كان لهذه المحن أن تكون حجرة عثرة أمام طموح جارف؛ بل كانت طاقة كامنة لنبوغ فكر هادف .

لقد كان ابن خلدون أشعرية السلوك ؛ يعتقد أن العقل قاصر في إدراك الحقائق الماورائية الغيبية ولذلك نراه في حياته الشخصية يعول - لاسيما - ما تعلق بالأمور - الشرعية - على الشرع وحده، وأما في حياته العقلية وفي تآليفه الخاصة فإنه معتزل التفكير يعتمد العقل والأقيسة المنطقية وطبائع الكائنات، وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار، هذا وقد كان يعتقد - جازما - أن الأمور الجارية في عالمنا الاجتماعي والمادي والنفساني تخضع لنواميس معينة، وتجري على نظام مخصوص، ثم إنها تتكرر كلما تهيأت لها مثل هذه الأسباب التي عملت على ظهورها من قبل (2) شأنها في ذلك شأن العلوم الطبيعية.

وهو يرى أيضا أن هذه الحوادث يستحيل أن تجري على خلاف ذلك؛ لأنها جزء من النظام الشامل الذي يسيطر على العمران البشري والاجتماع الإنساني، إنه يؤكد ها هنا على استبعاده المطلق للعقل المصادفاتي، ليقف على طرفي نقيض مع الفكر الغربي المادي .

2ـ ابن خلدون المفكر المؤرخ :

كان للأحداث التي عاشها ابن خلدون - كما أسلفنا ذكره - الأثر الأكبر في بلورة أفكاره المتعلقة بدراسة المجتمعات الإنسانية، مما أكسب كتاباته قيمة علمية عظيمة ؛ لأنها كانت بعيدة عن رواسب التصورات المثالية التي ميزت كتابات سابقيه من المفكرين .

لقد كانت آرائه نابعة من دراسة واقعية في ضوء مشاهداته وتجاربه الشخصية وهو الذي طاف ربوع العالم الإسلامي مشرقه ومغربه، وعاصر أحداثا جساما في تاريخ الدولة الإسلامية إما مشاركا بصنعها مباشرة، بحكم المناصب العلمية والسياسية التي تقلدها لدى مختلف الملوك والأمراء، أو كان قريبا من صنع القرار فيها ...

فقد عاصر الأحداث التي عصفت بالعالم الإسلامي والفتن التي اندلعت هنا وهناك وأدت إلى تشتته ثم إلى انحطاطه وأفول قوته، فكان بذلك شاهدا على تراجع وانحسار دور المسلمين في قيادة الركب الحضاري للإنسانية وتقلص نفوذهم .

ومنها الفتن التي أدت على انهيار الدويلات الإسلامية في الأندلس وسقوطها ثم اضمحلالها، بل اشترك هو بنفسه في الثورات التي عمت إفريقيا في عصره، كما كان شاهدا على غزوات التتار والماغول التي أخذت تكيل الضربات القاصمة للدولة الإسلامية من ناحية الشرق .

وقد نظر ابن خلدون إلى هذه الحوادث كلها نظرة فاحصة ؛ قصد تحليلها واستخلاص أسباب حدوثها، ومن ثم فهم واستنتاج الظروف التي تصاحب انحلال المجتمعات وسقوط الإمبراطوريات وأفول نجم الدول .

لقد لاحظ عن كثب مقدار تباين المجتمعات وتشابهها في ذات الوقت، واهتدى إلى أن : " كتابة التاريخ لا تستقيم إلا إذا سبق ذلك دراسة للبيئة والحضارة والظروف الاجتماعية التي انبعثت منها حوادث التاريخ " . (3)

وبهذا استطاع أن يضع المبادئ والدعائم الأساسية لتفسير الوقائع التاريخية، وتحليل الظواهر الاجتماعية واكتشاف القوانين التي تحكمها، وقد طبق هذا المنهج على تاريخ الدولة الإسلامية كنموذج للدول التي عاصرها، بناءً على الوثائق والسجلات والملاحظات الميدانية والمباشرة، بعيدا عن الأهواء والتحيز الذي طبع أعمال المؤرخين ممن عاصروه أو ممن جاؤوا قبله، بل وسجل عليهم بنفسه الكثير من المآخذ والتحفظات في أفكارهم ومناهجهم

وقبل أن نتطرق على جملة هذه المآخذ حري بنا التعرف على القوانين التي وضعها ابن خلدون للبحث التاريخي بشيء من التحليل .

أ - قوانين البحث التاريخي الخلدونية :

- قانون السببية :

أدرك أن لكل حادث أسبابه التي أدت إلى وقوعه، وأنه يجب البحث عن هذه الأسباب عند إعادة تركيب أحداث الماضي للوصول على الحقيقة التاريخية، ويجب على الباحث أن يتبع: " قواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني "، وعليه أن يقيس الحوادث بأشباهها وأن يحكم النظر والبصيرة وأن يرجع كل شيء إلى أسبابه وأن يستعمل معيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات، ولا بد له من رد الأحداث إلى أصولها، وان يبحث عن أسبابها للوقوف على حقيقتها، وألا يعتمد على النقل حتى لا يقع في الخطأ الذي وقع فيه الكثير من المؤرخين وعلى رأسهم في تقدير عدد جيوش بني إسرائيل بـ ستمائة ألف أو يزيدون، ويؤكد أنهم غير مدركين أن لكل حدث أسبابه [4]، وأن الباحث لا بد أن يكون فطنا يقضا لكل ذلك.

ومن الغلط الخفي في التاريخ الذهول عن تبدل الأحوال في الأمم والأجيال، إن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة، وانتقال من حال إلى حال، كما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار، فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول [5].

- قانون التطور :

رأى أن المؤرخ لابد له أن يكون مدركا أن الأجيال تتعاقب والعادات تتغير وتتطور من جيل إلى جيل، وكذا طبائع الأمم، وقد صاغ هذا القانون بقوله : " فما دامت الأمم والأجيال تتعاقب في الملك والسلطان، لا تزال المخالفة في العوائد والأحوال واقعة " [6].

- قانون المقارنة :

وقد اعتمد ابن خلدون هذا القانون عند نقله لرواية المؤرخين عن سبب نكبة البرامكة لاتخاذ حكاية العباسة أخت الرشيد وعلاقتها مع جعفر بن يحيى ابن خالد البرمكي منكرا هذه العلاقة، ومنكرا أن تكون سببا لهذه النكبة قائلا : " ولو نظر

المتأمل في ذلك نظر المنصف وقاس العباسة بابنة ملك من عظماء ملوك زمانه لاستنكف لها عن مثله مع مولى من مالي دولتها، وفي سلطان قوتها واستنكره ولج تكذيبه "، وبعد إصدار هذا القانون وتمحيص الحادثة رأى أن سبب النكبة يرجع إلى استبداد البرامكة وعلو شأنهم، واستحواذهم على أموال الدولة وانتشار عنصر الترك في كافة مرافق الدولة، مما أدى إلى العمل على إيقاع المكروه بهم .(7)

وعموما فان كل هذه القوانين إن دلت على شيء فإنما تدل على حرص ابن خلدون على تحري الصدق في البحث، والتنقيب على الحقائق ودراستها ؛ كيف لا وهو يعد أول مؤرخ حاول أن يضع أسس علم التاريخ الصحيح وقوانين تطور المجتمعات، وقد أوضح طريقته وغايته من هذا العلم فقال : " يجب علينا أن ننظر في الاجتماع البشري ونميز ما يلحقه من الأحوال لذاته، وبمقتضى طبعه، وما يكون عارضا لا يعتد به، وما لا يمكن أن يعرض له وإذا فعلنا ذلك كان ذلك قانونا في تمييز الحق من الباطل في الأخبار، والصدق من الكذب بوجه برهاني - يقيني - لا مدخل للشك فيه . "

وجدير بالذكر هنا أن موضوع التاريخ في نظر ابن خلدون لا ينحصر بالأخبار عما حدث من الفتوحات والملوك والدول، بل يشمل كذلك كل ما حدث من التحول من التحول في الحياة الاجتماعية من أمور اقتصادية وعلمية ... فالتاريخ - إذن - تاريخ المجتمعات والحضارات، هذه النظرة الشاملة للتاريخ من النظرات الخاصة والمتميزة التي تسمى حاليا باسم تاريخ الحضارات .

وهذا ما حدا ببعض الباحثين إلى اعتبار ابن خلدون أول من حاول كتابة تاريخ الحضارة بمفهوم يكاد يكون عصريا إن لم نقل كذلك.

ب ـ أهم مغالط المؤرخين في تفسير العمل التاريخي :

ويذكرها كما يلي [9]:

ـ التشيع للآراء والمذاهب :

المؤرخ المعتدل والعادل يتلقى الخبر فيمحصه حتى يتبين صدقه أو كذبه، أما المشيع لمذهب أو رأي ما يوافق مذهبه من الأخبار لأول وهلة دون تمحيص أو غربلة فيقع في الخطأ، حيث يقول في هذا الشأن ابن خلدون: " إن النفس إن كانت على حال الاعتدال في قبول الخبر أعطته حقه من التمحيص والنظر حتى يتبين صدقه عن كذبه، أما إذا خامرها تشيع لرأي أو نحلة قبلت ما يوافقها من الأخبار لأول وهلة، وكان ذلك الميل غطاء على عين بصيرتها... فتقع في قبول الكذب ونقله...الخ .

ـ الثقة بالناقلين والرواة :

إن الراوي قد يكون كاذبا عن قصد، أو مبالغا فيما يروي، أو صادقا ولكنه مخطئ في فهمه للخبر الذي يرويه، وفي جميع هذه الحالات يكون كلامه مخالفا للواقع، وعليه فعلى المؤرخ أن يراعي ناحيتين هامتين بالخصوص :

- أن ينظر فيما إذا كان الخبر المروي معقولا أو غير معقول .
- أن يتثبت من أمانة الراوي وصدقه .

– اطمئنانهم إلى الشائع والمشهور من الأخبار دون تمحيص :

حيث كثيرا ما تكون الشهرة مزورة، أو بعيدة على أن تكون شهرة حقيقية، لذا وجب عدم الاطمئنان المسبق لما يرويه مثل هذا الشهير .

ـ الذهول عن المقاصد :

ويقصد به توهم الصدق، ويتأتى ذلك من جهة الثقة بالرواة .

ـ الجهل بتطبيق الأحوال على الوقائع :

وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون : " فإن بعض الدساسين قد يلبسون الأمر على الناس أو يصطنعون بعض الوقائع، فإذا لم يفطن المؤرخ إلى ما بداخل أخبارهم من التلبيس والتصنع ولم يعرف كيف تنطبق الأحوال العامة على الوقائع الجزئية لم يستطع أن يتجنب الوقوع في الخطأ " .

ـ قياس الماضي على الحاضر:

كالذي يسمع أخبار الأيام الماضية ولا يتفطن لما وقع من تغير الأحوال وانقلابها فيجريها لأول وهلة على ما عرف، ويقيسها بما شهد، مع أن الفرق بينهما قد يكون كبيرا فيكون ذلك سببا لوقوعه في مهواة الغلط .

ـ ولوع النفس بالغرائب وسهولة التجاوز عن اللسان :

فالناس إذا تحدثوا مثلا عن عساكر الدول، أو اخذوا في إحصاء أموال الجبايات وخراج السلطان ونفقات المترفين وبضائع الأغنياء والميسورين توغلوا في العدد وتجاوزوا حدود العوائد، وطاوعوا وساوس الأغراب، وما ذلك إلا لميل النفس إلى المبالغة في نقل الأخبار، ولعدم تصورها معاني الألفاظ ومفاهيم الأعداد تصورا واضحا.

– ومن أوضح الأسباب التي ساقها ابن خلدون في أخطاء الناقلين للأخبار، التشويه العمدي قصد تقرب الناس والأكثر لأصحاب النحلة والمراتب بالثناء والمدح، وتحسين الأحوال وإشاعة الذكر بذلك، فيستفيض الإخبار بها على غير حقيقة، فالنفوس مولعة بحب الثناء والناس متطلعون إلى الدنيا وأسبابها من جاه أو ثروة .

وإذا أسقطنا هذه الرؤية على واقعنا المعيش لوجدناها تنطبق على الكثير من المؤرخين بل وحتى العلماء .

إن أحوج ما نكون إليه اليوم هو تشخيص للواقع برؤية واقعية لوقائعه وظواهره، وهذا حتى يتسنى لنا الوقوف على حقيقة ما آل إليه مجتمعنا ؛ وبالتالي تجنب الوقوعية في مزلات بيداء التيه والابتعاد عن تزييف حقائق وكنه الأشياء .

ثانيا ـ آراء ابن خلدون الاجتماعية ـ رؤية سوسيولوجية

الدارس لفكر ابن خلدون يقف على عدد كبير من القضايا والموضوعات التي أبرزتها النظريات الاجتماعية الحديثة، وعلى كثرتها فإننا في هذه الصدد نكتفي بعرض البعض منها [10].

1 ـ نشأة المجتمع الإنساني :

يقوم تفسير ابن خلدون لنشأة المجتمع الإنساني على فكرتين ما هو طبيعي وما هو ضروري، والإنسان يملك نزعة اجتماعية لها صفة الإرادية إلى جانب كونها عاطفة فطرية. وهاتين الفكرتين جعلت العلامة مونيه **MAUNIER** يصنف ابن خلدون بأنه من أنصار فكرة التعاقدية التي تبنى عليها العلاقات الاجتماعية حينما تتحقق عند الناس فإنها تعينهم على المحافظة على نوع الجنس البشري، وبذلك تتحقق ضرورة قيام السلطة في المجتمع والتي تنظم علاقات الناس تنظيما يضمن استقرار واستمرار المجتمع .

2 ـ المنهج العلمي في البحث الاجتماعي عند ابن خلدون :

قبل ابن خلدون، ساد التفكير الاجتماعي نزعتان : نزعة تخيلية أتيوبية في تحديد صفات وخصائص المدن الفاضلة والمثالية، ونزعة دينية تجلت في الآراء الاجتماعية الكامنة في الفلسفة المسيحية والفلسفة الإسلامية، لكن مع ابن خلدون برزت النزعة الواقعية التحقيقية والتي من خلالها أكد على ضرورة الالتجاء إلى الاستقراءات الواقعية والأساليب النقدية التحقيقية لفهم الظواهر الاجتماعية، وبهذا الموقف يبتعد ابن خلدون عن الفلاسفة الذين كانوا يعتقدون بأن المناهج القياسية النظرية تكفي للوصول إلى الحقيقة اليقينية بخصوص الظاهرات العمرانية، والكثير من أفكار ابن خلدون في هذا السياق – وبنظر الكثير من المفكرين المعاصرين – تنطوي على فكرة النسبية الاجتماعية التي تعتبر من أهم الآراء الحديثة في النظرية الاجتماعية المعاصرة .

ولعل أبرز ما يجسد النزعة الواقعية لدى ابن خلدون هو اهتمامه الكبير بما يسمى في وقتنا الحاضر بمناهج البحث ؛ فهو بأفكاره سبق الكثير من المفكرين والباحثين في هذا الشأن وأول ما عالجه هو الأفكار الذاتية السابقة على الدراسة الموضوعية الحيادية، وهذا ما وصفه بالتشيع للآراء والمذاهب .

فمحاربة الأوهام هي إحدى القاعد الأصولية التي حددها العالم الفرنسي إيميل دوركايم مؤسس المدرسة الاجتماعية الحديثة .

ثم إن ابن خلدون وتدعيما للفكرة السابقة يصطنع الأسس العامة لدراسة الظاهرة الاجتماعية ولم يسبقه أحد في ذلك، وأبرز ما ألح عليه هو ضرورة الاعتماد على الملاحظة المباشرة التي تتم بطريقة علمية ونقدية في ضوء التجربة الشخصية والتجربة الإنسانية بالنسبة للظاهرة المدروسة، وإلى جانب الملاحظة أبرز ضرورة إظهار الاقتران السببي بين الظواهر والحوادث، وبذلك وفي ضوء هذه القاعدة، فإن الباحث يجب أن يقيس الأحداث على أصول العادة وطبائع العمران، بحيث لا يأخذ ما ينقل عنها بالتسليم دون تمحيص ما إذا كانت ممكنة الحدوث أو مستحيلة، في ضوء معرفته لطبيعة الأشياء ومستوى العمران .

وقد أبرز ابن خلدون قضايا عديدة أخرى في المنهج العلمي نوجزها في :

- ضرورة استخدام الباحث منهج المقارنة بين ماضي الظاهرة وحاضرها .
- ضرورة الإيمان بنسبية الظاهرة العمرانية .
- الحرص على تفسير الظاهرة العمرانية في حالتي استقرارها ونموها بظاهرة اجتماعية عمرانية أخرى .
- الإيمان بجبرية وإلزامية الظاهرة الاجتماعية وما يترتب على مخالفتها .
- التأكيد على مبدأ الحتمية بالنسبة للظاهرة العمرانية .

وأخيرا، فإن ابن خلدون – حتى وإن دعا إلى استخدام الاستقراء لدراسة دول شمال إفريقيا ودول العرب دون الدول الأخرى – فإنه يبقى المفكر الذي اقترب من

تحديد معالم أساسية للمنهج العلمي في الدراسات الاجتماعية واعتمد الكثيرون من المعاصرين على أفكاره .

3ـ أوجه التجديد التي حملها ابن خلدون :

لا شك أن مساهمة ابن خلدون الفكرية، حملت تجديدا أكيدا لحالة الفكر السائد في عصره، وقد وقف الكثير من المفكرين المعاصرين بكثير من التحليل على مختلف أوجه التحديد في فحره، وفي هذا المقام لا ندعي القدرة على إضافة أمور جديدة إلى ما سبقنا إليه هؤلاء، ولذلك نكتفي بما عرضه الدكتور أحمد الخشاب حول النواحي التجديدية لفكر ابن خلدون لأهميته وقبولنا به (11)

أ – تغلب النزعة المادية على تفسيراته الكونية في محاولته تأكيد وحدة المادة وإرجاع الإنسان إلى أصل واحد .

ب – الوعي والإدراك للتدريج والترتيب بين الموجودات وربط الأسباب بالمسببات .

ج – دفاعه الثابت عن وجود قوانين موضوعية تسير بطبيعة وتفسير العمران والالتزام بمبدأ الحتمية .

د – انطلاقه في نظرية المعرفة من مواقف حسية وتصويرية واعتراضه على المذاهب التشكيكية ونقده للمسائل الميتافيزيقية .

هـ – تأكيده الدائم على المعطيات التي نفذتها التجربة والتي تشكل الأشياء الخارجية من الظرف الأساسي .

و – التزام ابن خلدون بمبدأ الحتمية التاريخية .

ز – تأكيده على الفهم الموضوعي الاجتماعي للتاريخ .

ح – تنبؤه بأهمية الأساس الأنتربولوجي كأحد العوامل المكيفة للحياة الاجتماعية وخاصة على اقتصاديات المجتمع .

ط – اهتمامه بالدراسات الديمغرافية والاقتصادية وطبيعة العلاقة بينهما والعمران .

ي – دراسته المورفولوجية التركيبية البنائية والديمغرافية السكانية .

ثالثا ـ تقييم موجز لأهم الإسهامات الخلدونية :

وقبل أن نلج إلى محاولة تقييم لأهم هذه الإنجازات، جديرا بنا القول بأنه مهما قيل عن هذا المفكر – ماضيا، حاضرا وحتى مستقبلا – فإنه لن يوف الرجل حقه؛ ذلك أن إسهاماته العالمية الجليلة للإنسانية فوق أن يعبر عنها عقل عالم أو حبر باحث.

وعموما ومن خلال هذا البحث ـ المتواضع ـ حول أهم أفكار ابن خلدون فإننا نستطيع القول أنه صاحب فكر عقلاني خلاق وتفكير معرفي خارق، يعتبر بحق ظاهرة إنسانية قل مثيله في عصر عرف انحطاط عربي (القرن الرابع عشر الميلادي)، فكان ـ برغم ظروفه القاسية ـ معايشا للواقع فاحصا لأحواله متقصيا لحقائقه، مستنتجا من جزئياته القوانين كاشفا عن العلل، فهو ليس مجرد فكر يرى واقعا معينا فيصفه، ولكنه فكر يعبر عن رؤية ثاقبة عميقة نافذة مخترقة لكوامن وكنه الواقع الاجتماعي، ورغم ما يقال عن أن فكره كان إيمانيا وتصوفيا وتدينه كان واضحا باعتباره فقيها بارزا من فقهاء المذهب المالكي (تولى تدريسه في مصر قرابة ربع قرن)، إلا أنه حين كتب المقدمة وفسر التاريخ الاجتماعي كان معرفيا **Epistémologique** وتجريبيا في آن واحد: أي مستقلا تماما عن نزعاته الدينية والعرفانية تلك؛ وإن لم يكن متحررا منها أو متنكرا لها [12]، ومعنى ذلك أنه كان ذا فكر متوازن ـ عقلا وعرضا ـ، وهي خاصية فريدة من نوعها تبرز مدى قوة وعلمية هذا الفكر؛ بل تؤكد عبقرية ابن خلدون، لاسيما وأنه قد اعتمد في تحليلاته الاجتماعية على معالم محددة لواقع محدد في إطار تاريخي محدد هو الأخر محدد، هو مجتمع المغرب الكبير في عهده، في ظل التطور التاريخ الذي خبره في كنف الحضارة العربية الإسلامية من حيث هو مجتمع قبلي تتعدد فيه الفئات العرقية والدينية [13]، وبذلك يتأبى على الوحدة مغربا ومشرقا .

ويكفينا للتدليل على عمق أفكاره وظيفيتها عبر متصلها الزمني وأفقها الحضاري وعالمية إسهامها الإنساني ما ذهب إليه بيتريم سوروكين **pitrim**

sorokin أحد كبار علماء الاجتماع الأمريكي، حيث يقول : " إن ابن خلدون قد ناقش جميع المسائل ـ تقريبا ـ التي ترد في موضوعات علم الاجتماع وفروعه المختلفة ،في ضوء اصطلاحاته عن الحياة البدوية والحياة الحضرية، وتبدو الكثير من آرائه حديثة من وجهة نظر علم الاجتماع المعاصر ويمكن وضع ابن خلدون جنب إلى جنب مع أفلطون وأرسطو وفيكو وأوقيست كونت، على أنه أحد مؤسسي علم الاجتماع، كما أنه في مجال التاريخ العلمي يعتبر مؤسس التاريخ العلمي " .

ويذهب جاستون بوتول في نفس الاتجاه حينما أكد على أن مقدمة ابن خلدون كانت أخر نور لما سمي بحق دور النهضة العربية، الذي وجب انتقال مشعله إلى أوربا فيما بعد .

ليضيف أرنولد توينبي أنها (أي المقدمة) أعظم عمل من نوعه أمكن لعقل بشري أن يبدعه .[14]

ومما تقدم فإنه غني عن البيان القول بأن الرؤية الخلدونية المجتمعية قد تحدت ظروف زمنها واخترقت أحصنة الحضارات المختلفة، لاسيما الغربية، بل وأكثر من هذا كله كانت إسهاماته بمثابة نظرية كونية .

ورغم عظمته هذه الإسهامات فإننا نلمس في فكره، وبل وحتى في شخصيته الكثير من التواضع ـ الدال على الرفعة والسمو ـ وهذا ما نستشفه في قوله : " ... ونحن ألهمنا الله على ذلك إلهاما ... فإن كنت قد استوفيت مسائله وميزته عن سائر الصنائع أنظاره فتوفيق من الله وهداية، وإن فاتني شيء في إحصائه، واشتبهت بغيره مسائله فللناظر المحقق إصلاحه، ولي بعض الفضل لأني نهجت له السبيل وأوضحت له الطريق " [15] ؛ إنها حقا أخلاقيات علمية لها أبعادها الإنسانية العالمية.

الهوامش والمراجع:

1 - مصطفى غالب : ابن خلدون ــ في سبيل موسوعة فلسفية ــ 6، دار مكتبة الهلال بيــروت، 1995، ص 31 .

2 - عمر فروخ : تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون، دار المعلــم للملايــين، بيــروت ط1، 1972، ص 694 .

3 - لمزيد من الإطّلاع أنظر سفاري ميلود : مطبوعة حول الإسهام الخلدوني، ص – ص 45 – 47 .

4 - عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم : علم التاريخ عند عبد الرحمن ابــن خلــدون مداخلــة ضمن أعمال الملتقى الدولي الثاني عن ابن خلدون، تيارت، الجزائر، 1986 ص 90.89 .

5 - مقدمة ابن خلدون، دار الكتب العلمية، بيروت، ص 22 .

6 - عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم : مرجع سابق، ص 89 .

7 - المرجع نفسه، ص 90 .

8 - مصطفى غالب : مرجع سابق، ص – ص 44 – 46.

9 - المرجع نفسه، ص – ص 47 – 50 .

10 - اعتمدنا في إعدادنا للجزء الأول من المداخلة على مجموعة من المصادر :

– سعود الطاهر 3 نظرية التغيير الاجتماعي في الفكر الخلدوني 3 مداخلة شارك بها الأستاذ في الملتقى الدولي الأول حول القيم العالمية في الفكر الخلدوني جامعة تيارت ماي [illegible]

– عبد المجيد مزيان 3 النظريات الاقتصادية عند ابن خلدون ــ فرندة 1 – 4 سبتمبر [illegible] المركز الوطني للدراسات التاريخية .

11 - أحمد الخشاب . التفكير الاجتماعي، دار النهضة العربية، بيــروت 1970، ص ص 322 – 331.

12 - مصطفى غالب : مرجع سابق، ص 17 .

13 - محمد عابد الجابري : فكر ابن خلدون ــ العصبية والدولة ــ معالم نظريــة فــي التــاريخ الإسلامي، دار الطليعة، بيروت، ط3، 1982 .

14 - محمد أحمد بيومي: تاريخ التفكير الاجتماعي، دار المعرفة الجامعيــة، الإســكندرية 1998، ص 102.

15 - المقدمة : ص 38، 39 .